المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثالث - 1399 - 1979

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شكير

مـــع

« ابن طفيل » الشاعر

ـ بحث نقـدي ، وتحقيـق ، ودراســة ادبيــة فلسفيــة مقارنــة ـ

بقلم

مدني صالح

كلية الاداب ، جامعة بغداد

هـذا بحث عن شـعر « ابن طفيـل » قصـدنا به شـعرالرجل اينما ظن الظان ان بجـده واسـتطعنا الى مواطن الظن سـبيلا .. وقد رجعنا ـ ضمن حدود هذه الخطـة ـ الى كلالمصـادر التي ورد فيها مـن اخبار ابن طفيل خبر مـن كتاب « المن بالامامـة » لابن صـاحب الصـلاة (المتـوفى ٥٧٧هـ /١١٨٢م) الى « نفح الطيب » للمقري (المتوفى ١٠٤١هـ/١٦٣٢م) وفي الدين رجعنا الى مؤلفاتهم ثلاثـة مؤلفين عاصـروا « ابنطفيل » (المتوفى ٥٨١هـ / ١١٨٥م) ، وهم : « ابن صاحب الصلاة (المتوفى ٥٧٧هـ / ١١٨٢م) »و «عبدالواحد المراكشي» المتـوفى ٦١٨هـ / ١٢٢٢م) ، و « ابن دحيـة » (المتوفى ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) .. وفي هذا من دواعي زيادة الثقة بمصادرالتوثيق ـ منهجيا ما فيه .. وذلك لان قرابة عهد المخبر بعهد الخبر امـر مـن امور يركن اليهـا الباحث واقفا في احكـامالتوثيق .

وانتهينا بعد البحث الى جمع اشعار لا نشك في انهـامن شعر « ابن طفيل » باى من احوال الشك ، ورتبناها مع مصـادر اسـتقـاء المادة قسما مستقلا بعنـوان : « الروايات ومصادر التوثيق » .

وقمنا بعد ذلك بالتحقيق قسما مستقلا كذلك بعنوان:« نقد الروايات واعادة بناء النصوص » ، وبجيء القسـم الثالث « دراسة ادبية فلسفية » لاشعار « ابن طفيل » : احداكبر الفلاسفة الادباء ، واحد اكبر الأطباء العلماء ، واحد اكبر اساطين الحكمة في الفلســفة وفي الطب وفي الادب ..ولو لم يكن « ابن طفيل » على نحو ما وصفنا من جلال القدر وبعد الهمة والهم لما التفتنا باى من ضروب الاهتمام الى ماقد يكون له من شعر ..

---

(١)

الروايات ومصادر التوثيق

الروايات :

رواية عبدالواحد المراكشي .
رواية ابن الابار .
رواية ابن سعيد .

مصادر التوثيق

ابن صاحب الصلاة : « المن بالامامة » .
ابن دحية : « المطرب من اشعار اهل المغرب » .
عبدالواحد المراكشي : « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » .
ابن الابار : « المقتضب منالحلة السيراء » .
ابن سعيد : « المغرب في حلى المغرب » .
ابن خلكان : « وفيات الاعيان » .
ابن زرع : « الانيس المطرب » .
ابن الخطيب : « الاحاطة » و « اعمال الاعلام » .
المقرى : « نفح الطيب » .

الروايات :

اخبرنا عبدالواحد المراكشي قال(١) : « وكان ابو بكر « ابن طفيل » احد حسنات الدهر في ذاته وادواته .. انشدني ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ مـن شعر ابيه رحمه الله :

« المت وقـد نام المشـيع وهومأ
واسرت الروادىالعقيق منالحمى

WWW.ATTAWEEL.COM

وجرت على ترب المحصب ذيلها
فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناوله ايدى التجار لطيمة
ويحمله الدارى ابان بمما
ولما رات ان لا ظلام بجنهما
وان سراها فيه لن يتكتما
نفضت عذبات الربط عن حر وجهها
فابدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجاب جمالها
كشمس الضحى يمشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر
وقد كاد حبل الود ان يتصرما
جلت عن ثناياها واومض بارق
فلم ادر من شق الدجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكا
فلم ادر دمعا اينا كان اسجما
فقالت وقد رق الحديث وابصرت
قسرائن احوال الهوى المتكتما
نشدتك لا يلهب بك الشوق ملعبا
بهون صبا او يرخص مائما
فامسكت لا مستغنيا عن نوالها
ولكن رايت الصبر اوفى واكرما»(١)

« ومن شعره في الزهد رحمه الله » ، والكلام لعبد الواحد المراكشي : « ما قرا على ابنه من خطه في التاريخ المذكور » :

« يا باكيا فرقة الاحباب من شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين الى اجل
فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتنقا
الفتها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن في رضى الله اجتماعهما
فيالها صفقة تمت على غبن ».

« وانشدني » ، والكلام لعبد الواحد المراكشي كذلك: « بعض اصحابنا من الكتاب له رحمه الله » :

« ما كل من شم نال رائحة
للناس في ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم
بين المعاني اولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا
وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلي لناظرهم
منه ولا ينقضي لهم ارب
لا يتعدى امروء جبلته
قد قسمت في الطبيعة الرتب »

ومن شعره برواية ابن الابار :(٣)

« اذكر اذ مسحت بليك دمعي
وقد حل البكا فيها عقوده
ذكرت بان ريقك ماء ورد
فقابلت الحرارة بالبرودة »

وقوله :

« يقولون لي فيك اضحت عليلة
فقلت فما لي قد بقيت اذن حيا
اتصبح شمس الارض كاسفة السنا
ولا يعترى جسمي لعلتها فيا
اذ ما طوى عني السقام وصالها
طوى الموت روحي في ملاءته طيا » .

وهذا كل ما انتهى بنا البحث اليه من شعر « ابن طفيل »، ولم نر له غير في المراجع(٤) التي تفضينا فيها اخباره .

ونرى اول مانرى ضرورة تسمية مقطوعات «ابن طفيل» الشعرية بعناوين تدل عليها حين الرجوع اليها في الدرس ، وحين الاشارة اليها في البحث ، وحين التسمية ضرورة لابد منها لتميز المسميات بعضها من بعض ..

ونرى ان يكون اسم القصيدة التي مطلعها :

« المت وقد نام المشيح وهومها
واسرت الى وادى العقيق من الحمى»

بالعنوان : « اسراء النفس ونوم المشيح » ..

وان يكون اسم القصيدة التي مطلعها :

« يا باكيا فرقة الاحباب من شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن » ،

بالعنوان : « فراق الروح للبدن » .

وان يكون اسم القصيدة التي مطلعها :

« ما كل من شم نال رائحة
للناس في ذا تباين عجب » ،

بالعنوان : « تباين الناس وقسمة الرتب » .

وان يكون اسم القصيدة التي مطلعها :

« اذكر اذ مسحت بليك دمعي
وقد حل البكا فيها عقوده » ،

بالعنوان : « تذكر البكاء » .

وان يكون اسم القصيدة التي مطلعها :

« يقولون لي فيك اضحت عليلة
فقلت فما لي قد بقيت اذن حيا »

بالعنوان : « فيك العليلة » .

وبهذا تكون نتيجة بحثنا عن اشعار « ابن طفيل » خمس قصائد « جمعناها وسميناها على النحو التالي » :ـ

١ ـ اسراء النفس ونوم المشيح .
٢ ـ فراق الروح للبدن .
٣ ـ تباين الناس وقسمة الرتب .
٤ ـ تذكر البكاء .
٥ ـ فيك العليلة .

وقد وردت قصيدة « اسراء النفس ونوم المشيح » عند كل من « عبدالواحد المراكشي »(٥) و « ابن الابار(٦) » و

« ابن سعيد(٧) » باختلاف في عدد الابيات وفي ضبط رواية النص .. ولم نرد هذه القصيدة عند احد من المؤلفين الذين رجعنا اليهم بشان اخبار « ابن طفيل » .

وانفرد « المراكشي(٩) » برواية « فراق الروح للبدن » و « تباين الناس وقسمة الرتب » ولم يذكرهما غيره .

وانفرد « ابن الابار »(١٠) برواية « تذكرة البكاء » و « ضمير الصليلة » ولم يذكرهما غيره .

ونحن اذ نستقل هذا الذي وصلنا من شعر «ابن طفيل» انما نستقله بساقية ازاء البحر الضائع من شعر هذا الفيلسوف الاديب الذي يدل الحاضر من شعره وتدل مع القرائن والبينات على ان الضائع منه كثير ... وانه من الضائع الذي له ـ حتما ـ شان في ديوان الادب الرمزي الفلسفي .. ومن القرائن والبينات الدالة على شاعرية « ابن طفيل » ما يلي :ـ

اولا : ان « ابن دحية » يذكر « ابن طفيل » بلقب « الشاعر »(١١) ، وان « عبدالواحد المراكشي » يذكر لنا ان « ابن طفيل » : « كان ياخذ الجامكية مع عدة اصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين ، والكتاب و « الشعراء » ، والرماة ، والاجناد .. الى غير هؤلاء من الطوائف » .(١٢)

ان « ابن طفيل » كان ، حينئذ ، وبناء على هذين الخبرين ، معروفا بالشعر عند معاصريه ومشتهرا به لديهم .. وانه ، بناء على رواية المراكشي هذه ، كان شاعرا مكثرا ومجيدا ، والا فكيف ـ اذا لم يكن الامر كذلك ـ يتلقى الهدايا والهبات عن الشعر مع الشعراء كلما كان تقديم للمجيدين وكلما كانت مكافاة وكان عطاء ؟! ونستدل باخذه الجامكية على الشعر مع الشعراء كلما اخذوها على انه كان يتعاطى ـ فيما كان يتعاطى من اغراض الشعر ـ « المديح » و « الهجاء » و « الرثاء » . والا ، فعلى اي الشعر يشاب الشاعر فياخذ الجامكية كلما كان عطاء على الشعر في قصر امير المؤمنين الموحدي في الشمال الافريقي وبلاد الاندلس تحت ظل حكم الموحدين ؟ .

ثانيا ـ ان في قول « ابن سعيد » في تقديمه لروايته :

« واشهر واحسن شعره(١٣) » بينة ترجح عندنا ان « ابن سعيد » كان يعرف مشهورا حسنا من شعر «ابن طفيل» لكنه اثر ان يروي اشهر واحسن هذا الشعر في نظره ، او في نظر نقاد ذاك الزمان .

ثالثا ـ اذا كان الشعر ـ اضافة الى كل ما قد يكون عند الاخرين ـ قدرة على النظم وقدرة على التصور ، فان « ابن طفيل » قد بلغ الاوج في القدرتين .

اما قدرته على نظم الكلام موزونا مماثلة في خمسمائة وسبعة الاف بيت من نظمه ... انها الارجوزة الطبية »(١٤) لابن طفيل .. وانها اطول ارجوزة في الطب. بل اطول ارجوزة في موضوع واحد . وفي هذا بينة شاهدة على قدرة هذا الفيلسوف على تاليف الكلام الموزون نظما وعلى طول الباع والنفس فيه .

اما من جهة القدرة على التصور ، فان « ابن طفيل » ابن البجدة في البلدة وفارس الحلبة في هذا الميدان «وانه حين المسالة مسالة اخيلة وتصورات فانه لا يبارى الا وهو السبق .. والبينة جهيرة في هذا المقام : انها ماثلة في كتابه الذائع الصيت « حي بن يقظان » التي تعدها(١٥) وبحسبها معنا الاخرون واحدة من اعلى نصوص الادب الرمزي الفلسفي : لغة ، وفكرا ، واسلوب صياغة ، وتصورا .

رابعا: ـ واذا كان الشعر ـ اضافة الى القدرة على التصور والنظم ـ ثقافة شعرية وتجربا في الحوادث وفي النفس ، فان تجاريب ابن طفيل في الحوادث كثير متنوع فعال(١٦) ، وان تجربته في النفس خطير عميق(١٧) ، وان ميله لنقل الاستشهاد بالشعر يفصح عن ميل نحو التعبير شعرا . هذا اضافة الى افصاحه عن حسن قراءته لشعر الاخرين وحفظه وتذوقه وتقديره لهذا الشعر .(١٨)

مصادر التوثيق :

١ ـ عبدالواحد المراكشي : « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وانشا مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ .

٢ ـ ذكر منها «ابن الابار» الابيات التالية على النحو التالي:

« الت وقد نام الرقيب وهومسا
واسرت الوادى العقيق منالحمى
وراحت الى نجد فراح منجدا
ومرت بنعمان فاضحى منمما
وجرت على ترب المحصب ذيلها
فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناقله ايدى النجار لطيمة
ويحمله الدارى ايان يمما
ولما رات ان لا ظلام يجنها
وان سراها فيه لن يتكتما
سرت عذبات الريط عن حروجها
فابدت شماعا يرجع الصبح معلما
فكان تجليها حجاب جمالها
كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما

انظر : ابن الابار ابي عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي الاندلسي : « المقتضب من كتاب تحفة القادم » ،اخبار وتقييد ابي اسحق بن محمد بن ابراهيم البلفيقي ، بتحقيق ابراهيم الابياري ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وذكر منها «ابن سعيد» الابيات التالية على نحو مايلي:

« ... واشهر شعره واحسنه قوله :

الت وقد هام الشيع وهومسا
واسرت الوادى العقيق من الحمى
وراحت على نجد فراح منجدا
ومرت بنعمان فاضحى منمما
وجرت على ترب المحصب ذيلها
فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تقسمه ايدى النجار لطيمة
ويحمله الدارى ايان يمما
ولما رات لا ظلام يكنها
وان سراها فيه لن يتكتما

ازالت غمام العصب عن حروجها
فالقت شعاعا يدهش المتوسما

فكان تجليها حجاب جمالها
كشمس الضحى يمشي بها الطرف كلما».

انظر : علي ابو الحسن ابن سعيد : « المغرب في حلى المغرب » ، حققه وعلق عليه شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

٣ ـ ابن الابار : « المصدر المذكور نفسه » .

٤ ـ هذا وقد رجعنا في البحث عن اشعار ابن طفيل الى كل المصادر التي ورد فيها من اخباره خبر متوقعين ان نجد في الاخبار شيئا من شعر او ما يفيد اشارة اليه .. هذا وقد رجعنا الى هذه المصادر على نحو ما يلي :ـ

« ا » ابو مروان عبدالملك بن محمد بن صاحب الصلاة (المتوفى ٥٧٧هـ / ١١٨٢م) : « المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين وظهور الامام المهدي وتاريخ الموحدين ، اوكسفورد ، مكتبة البودليانه ، المخطوطة (Marsh 4339) ، ورقة (137 b.) ـ «ب» ابو الخطاب عمر بن حسن بن دحيه (المتوفى ٦٣٣هـ / ١٢٣٥) : « المطرب من اشعار اهل المغرب » ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٦٦ ـ «ج» عبد الواحد الراكشي (المتوفى ٦١٨هـ / ١٢٢٢م) : « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٣ . «د» ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن الابار (المتوفى ٦٥٩هـ) . «هـ» علي ابو الحسن « ابن سعيد » (المتوفى ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) : « المغرب في حلى المغرب » ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٨٥ . « و » ابن خلكان (المتوفى ٦٨١هـ/١٢٨٢م) : « وفيات الاعيان » القاهرة ١٨٥٨ ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ . «ز» ابو الحسن علي بن عبدالله بن ابي زرع (المتوفى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) : « كتاب الانيس المطرب روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ، ابسالا ١٨٤٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٥ . «ح» لسان الدين بن الخطيب (المتوفى ٧٧٦ / ١٣٧٤): « كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة » ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ١٩٣ و « كتاب اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام » ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ و « كتاب مركز الاحاطة » مكتبة جامعة كيمبرج ، المخطوطة(Qq. 287) ورقة (136. a.) . «ط» احمد بن محمد المقرى (المتوفى ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م) : « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٤ ، ص ١٨٢ ، ج ٩ ، ص ١٢ .

٥ ـ انظر الهامش رقم (١) .
٦ ـ انظر الهامش رقم (٢) .
٧ ـ انظر الهامش رقم (٣) كذلك .
٨ ـ انظر الهامش رقم (٤) .
٩ ـ انظر الهامش رقم (١) .
١٠ ـ انظر الهامش رقم (٣) بدلالة الهامش رقم (٢) .
١١ ـ انظر الهامش رقم (٤) فقرة «ج» .
١٢ ـ انظر الهامش رقم (١) .
١٣ ـ انظر الهامش رقم (٣) والهامش رقم (٤) فقرة «هـ» .
١٤ ـ مدني صالح : قضايا اكاديمية ـ نحو اعادة بناء كلاسيك الطب العربي في الداخل العلمي الحديث ، مجلة الثقافة ، بغداد ، العدد السابع ، تموز ١٩٧٧ ، ص ٩٤ ـ ١٠٠ .
١٥ ـ مدني صالح : انظر « ابن طفيل من اللاهوت الى الرواية الانجليزية » ، مجلة الاقلام ، بغداد ١٩٧٣ ، العدد ١ و « دون انطونيو دونريزانيو وحي بن يقظان » ، مجلة الاقلام ، بغداد ١٩٧٤ ، العدد ٩ .
١٦ ـ ومن تجريب « ابن طفيل » في الحوادث انه عاش وسط مضطرب الحياة في الشمال الافريقي العربي وبلاد الاندلس .. انه قد شهد الصراع بين المرابطين والموحدين وقيام هؤلاء وسقوط اولئك .. ويتدرج في المناصب حتى انتهى به التدرج الى اعلى المقامات في قصر الخلافة تحت ظل الموحدين : وزيرا ، وطبيب قصر ، وصديقا مؤتمنا ومستشارا لامير المؤمنين ابو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن الموحدى ولاخيه الذى جاء بعده امير المؤمنين ابويوسف يعقوب بن عبدالمؤمن الموحدى .
١٧ ـ اما من جهة التجريب من الداخل في الداخل سفرا في اقطار النفس ، فان « ابن طفيل » قد بلغ في الامر الشاو : انه قد تخطى حدود الفلسفة الى تخوم التصوف وتوغل فيه وفي المشاهدة والرؤية والابصار بعين القلب في معارج القدس .
١٨ ـ مثال ذلك استشهاده في مقدمته لكتابه «حي بن يقظان» بقول القائل :

« بروح بي ان علوم الورى
اثنان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة معجز تحصيلها
وباطل تحصيله ما بفيد » .

ونقله في المقدمة نفسها استشهاد «الغزالي» بقول القائل:

« خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به
في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

واستشهد بقول القائل :

« فكان ما كان مما لست اذكره
فظن خيرا ولا تسال عن الخبر ».

(٢)

ـ نقد الروايات واعادة بناء النصوص ـ

نلاحظ بعد قراءة الروايات ان « ابن سعيد » قد نقل الينا سبعة ابيات من قصيدة « اسرار النفس ونوم المشيخ »، وانها السبعة ابيات نفسها التي وردت عند « ابن الابار » ، وانهما قد نقلا السبعة ابيات من اول القصيدة . هذا بينما نجد ان « عبدالواحد المراكشي » قد نقل الينا القصيدة كاملة سوى البيت الثاني من روايتي « ابن سعيد » و «ابن الابار» الذي ورد عندهما ولم يرد عند « عبدالواحد المراكشي » .

وقد جاء هذا البيت عند «ابن سعيد» على النحو التالي:

« وراحت على نجد فراح منجدا
ومرت بنعمان فاضحى منعما »

وجاء عند « ابن الابار » كما يلي :

« وراحت الى نجد فراح منجدا
ومرت بنعمان فاضحى منعما »

ورواية هذا اصح ، وذلك لان « الرواح الى » اصح من « الرواح على » ، وان قولك « وراحت الى نجد » اصح في مجال اداء المعنى المقصود من قولك « وراحت على نجد » .

هذا من جهة صيغة البيت .. اما من جهة اصالة نسبته الى « ابن طفيل » كأحد ابيات هذه القصيدة ، فنحن ميالون الى تاييد هذه النسبة بناء على ان هذا البيت يرد ورود الشارح المفصل في بناء القصيدة بعد البيت الاول .. ونرى بناء على هذا التصور ان هذا البيت قد سقط من رواية « عبدالواحد المراكشي » اما بسهو من النساخ الذين تداولوا مخطوطة كتاب عبدالواحد المراكشي ، واما بسهو من «يحيى» ـ احد ابناء « ابن طفيل » ـ الذي رواها للمراكشي ، واما بسهو من المراكشي نفسه .. لا نرجح في الامر سببا على سبب.

هذا من جهة عدد الابيات .. اما من جهة ضبط صيغتها فنرى ان رواية « المراكشي » اجدر من غيرها بالاعتماد نصا اصلا لقصيدة « ابن طفيل » هذه مع اضافة البيت الثاني اليها على نحو ما ضبطنا صيغته اعلاه .. وذلك للاسباب التالية :

اولا : ان « المراكشي » (المتوفى ٦١٨هـ / ١٢٢٢م) اقرب في الزمن الى « ابن طفيل » (المتوفى ٥٨١ / ١١٨٥م) من « ابن الابار » (المتوفى ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م) و «ابن سعيد» (المتوفى ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م) .

ثانيا : ان روايتي « ابن الابار » و « ابن سعيد » ، اضافة الى انهما لاتوردان الا السبعة ابيات الاولى من القصيدة ، فانهما مضطربتان بالاخطاء وبالتحريف على نحو ما يلي :ـ

١ ـ ان « المت وقد نام الرقيب وهوما » في رواية « ابن الابار » و « المت وقد هام المشيح وهوما » في رواية « ابن سعيد » لاترقيان الى « المت وقد نام المشيح وهوما » في رواية « المراكشي » ذلك لان « نام الرقيب » الواردة في رواية « ابن الابار » اقل شأنا في قوة الايحاء الشعري من « نام ... المشيح » الواردة في رواية « المراكشي » .. هذا من جهة . اما من الجهة الاخرى فان للمشيح من المعاني الهاجمة وراء الدلالة الحرفية للكلمة ما ليس للرقيب ... ولان « المشيح » من المفردات المتداولة في الشعر والمشحونة بتجارب فحول شعراء في الجاهلية وصدر الاسلام .. بل انها من المفردات الثابتة والمؤثرة في التراث الشعري القريب الصلة موضوعا واسلوب صياغة بموضوع واسلوب غير ابن طفيل الرمزي .. ولكل هذا تفصيل في القسم الثالث من هذه الدراسة .

اما العبارة « وقد هام المشيح وهوما » الواردة في رواية « ابن سعيد » ففيه تكرار لا يعطي التنوع والتدرج الذي تعطيه العبارة « وقد نام المشيح وهوما » الواردة رواية « المراكشي » . هذا ولا نحسب « هام » في رواية « ابن سعيد » الا تحريفا لكلمة « نام » .. وانه تحريف من عمل النساخ الذين تداولوا مخطوطة كتاب « ابن سعيد » ، او انه تحريف جاء ربما بسهو من الرواة الذين تداولوا رواية القصيدة او ، ربما ، بسهو من « ابن سعيد » نفسه . لا نرجح حالا على حال .

٢ ـ ان في « وجرت على ذيل المحصب ذيلها » في رواية « ابن سعيد » تحريفا ظاهرا للاصل : « وجرت على ترب المحصب ذيلها » الواردة في روايتي « ابن الابار » و « المراكشي » . وذلك لان جر الذيل على الذيل لا يفيدنا المعنى المقصود الذي نجده في جر الذيل على ترب المحصب .. وترب المحصب هنا رمز للمادي الحسي في عالم الشهادة : رمز للجسد ازاء النفس .. ولكل هذا شرح مفصل في القسم الثالث من هذه الدراسة .

٣ ـ « تناقله » في رواية « ابن الابار » : « تناقله ايدي التجار لطيمة » ، و « تقسمه » في رواية « ابن سعيد »: « تقسمه ايدي التجار لطيمة » تحريف من عمل الرواة او النساخ الذين تداولوا هذه الكلمة .. او ربما من عمل الاثنين للكلمة « تناوله » الواردة في رواية « المراكشي » : « تناوله ايدي التجار لطيمة » .

٤ ـ ان « يجنها » الواردة في رواية « ابن سعيد » : « ولما رات ان لا ظلام يكنها » تحريف من عمل الرواة او النساخ للكلمة « يجنها » الواردة في روايتي « ابن الابار » و « المراكشي » : « ولما رات ان لا ظلام يجنها » التي هي هي الصواب والاصل . وذلك لان الحديث في القصيدة عن النفس التي ـ بعد السرى في الليل وجنة الظلام ـ ادركها نور الصبح فصارت مسافرة في الضوء لاجنة لها ولاظلام يجنها من افتضاح امر السر .. هذا وان «يكنها» لا تفيد هنا المعنى المقصود رغم انها تفيد معنى الستر . لكنها لا تفيد معنى الستر الا في المأوى الذي هو «الكن» .. و « الكن » : كل ما يرد الحر والبرد من الابنية والمساكن .. وعلى هذا يكون يكنه بمعنى بستره .. ورغم ان « يكن » قد ترقى الى اداء المعنى في هذا المجال فان مجيء « يجنها » عند « ابن الابار » « والمراكشي » يتطابق يرجح عندنا الاخذ بهما اصلا بناء على ان « ابن سعيد » متأخر عنهما .. بل انه روى عنهما فهما الاصل والمصدر .

٥ ـ ان « ازالت غمام العصب » في رواية « ابن سعيد » : « ازالت غمام العصب عن حر وجهها » ، و « سرت » في رواية « ابن الابار » : « سرت عذبات الريط عن حر وجهها » تحريف من عمل النساخ وتبديل من عمل الرواة . وذلك لان الكلمة « سرت » لا تفيد المعنى المقصود في هذا المقام ، ولان الكلمة « ازالت » كلمة لا ترقى الى مستوى الكلمة « نضت » الواردة في رواية المراكشي : « نضت عذبات الريط عن حر وجهها » التي نعتمدها الاصل الصواب .. ذلك لان الكلمة « نضت » اوفى من الكلمة « ازالت » في الانسجام الموسيقي لترتيب الحروف وفي القدرة على الايحاء ضمن حدود المعنى المطلوب الذي قصده الشاعر .

٦ ـ ان « فابدت محيا بدهش المتوسما » العبارة الواردة في

رواية « المراكشي » ، اقرب الى المعنى المطلوب وادنى الى قصد الشاعر واكثر ملاءمة لمجمل القصيدة من العبارة « فابدت شعاعا يرجع الصبح معلما » (مظلما الواردة في رواية « ابن الابار » والعبارة « فالقت شعاعا يدهش المتوسما » .. الواردة في رواية ابن سعيد .. وذلك لان قولنا « فابدت محيا يدهش المتوسما » اكثر بلاغة في الشعر من قولنا « فابدت شعاعا يرجع الصبح معلما » ذلك لان التنوير فعل ملازم للشعاع بالطبع .. وهذا ما لا يضيف الى العبارة الشعرية ظلا من ظلال جمال البلاغة التي قصدها « ابن طفيل » . هذا من جهة . اما من جهة اخرى ، فان العبارة «فابدت محيا» في رواية « المراكشي » اكثر اداء للمعنى المقصود من « فابدت شعاعا » الواردة في رواية « ابن الابار » و « فالقت شعاعا » الواردة في رواية « ابن سعيد » .. وانها ، اضافة الى هذا اكثر انسجاما مع بناء القصيدة لورودها بعد « نفضت عذبات الريط عن حسر وجهها » وانها بعد ان نفضت الحجاب سفرت وابدت المحيا المشع المدهش للمتوسم وستثبت « فراق الروح للبدن » و « تباين الناس وقسمة الرتب » كما وردتا برواية « المراكشي » معتمدين انهما لم تردا عنده غيره . كما تثبت « تذكر البكاء » و « ضمياء العليلة » كما وردتا برواية « ابن الابار » معتمدين على انهما لم تردا عند غيره .. ومعتمدين على ان القارىء اذ يقرا هذه المقطوعات الشعرية لا يحس بالتطلع الى بدائل محتملة يحتمل ان تكون هي الاصل . هذا اضافة الى الوضوح في الاداء وفي الدلالة على المعنى المقصود من الموضوع .

((دراسة ادبية فلسفية))

التمهيد :

نلاحظ اول ما نلاحظ في اشعار « ابن طفيل » طغيان النزعة الصوفية في القصد من الموضوع ، كما نلاحظ سيادة الاداء الرمزي وسيلة في التعبير .

ونرى ـ بناء على هذه الملاحظة ـ ان « ابن طفيل » لم يتحول في مقاطيع الشعر لا عن معتاد قصده من الموضوع الفلسفي ، ولا عن معتاد طريقة ادائه في التعبير عنه ... هذا ، وانه قد ظل في اشعاره مثله في قصة « حي بن يقظان » سيدا من سادة الادب الرمزي المفلسف : الادب الذي كان منه للثقافة العربية ما لم يكن قط لاي من ثقافات الامم ... وما « ابن طفيل » في الادب الرمزي المفلسف الا حلقة في سلسلة اساطين كان فيهم « ابن سينا » و « الغزالي » و « السهروردي » و « ابن عربي » و « الحلاج » و « الشبلي » و « البسطامي » و « ابن الفارض » ، وغيرهم من اساطين الفلسفة وقادة التجريب في حوادث الحياة والنفس والتصوف والادب الرمزي المفلسف عبر حدود الاداء الحرفي للكلمات .

هذا من جهة الانشاء الادبي .. اما من جهة النقد الادبي فقد اهتم « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » بشعر وبخطابة ارسطو اهتماما كبيرا كان منه لخطابة وشعر ارسطو تلخيصات وتعليقات وشروح .. وهكذا لا نلقى الفيلسوف العربي الا وتجده لغويا فقيها في اللغة ، ومنشئا من الطراز الاول ، واديبا بارعا في الشعر وفي النثر وفي النقد وكان ابن طفيل هو ـ لاخباره ـ الذي استدرج ابن رشد الى ان يكتب ما كتب من تلخيصات وشروح لمؤلفات ارسطو ومنها معالجات « ابن رشد » لشعر ارسطو وخطابته بالتلخيص والتنظير التطبيقي وفق ملاءمة واقع حال كلاسيك الشعر العربي .

وظل « ابن طفيل » في مركز القضية الادبية حتى انك تجد ان قضية « ابن طفيل » في العصور الحديثة قضية ادبية اكثر منها فلسفية ... وانه يحتل اليوم عندنا مركز محور الحديث النقدي الدائر حول بداية طلائع الرواية الاوربية في العصور الحديثة .. ومن هذا الحديث النقدي الذي يدور حول قضية « حي بن يقظان » لابن طفيل و « روبنصن كروزو » لدانيال دوفو ، والحديث الدائر حول علاقة « حي ابن يقظان » برائعة بلتسار جراسيان : « الكرتيون » الاسباني .. هذا اضافة الى الحديث النقدي الدائم حول بدايات الادب الرمزي وادب العزلة الدائر حول الانسان المعزول في الجزر النائية والدلالات الرمزية ومستوياتها لهذا الادب .

ان اهتمامنا باشعار « ابن طفيل » لا يمثل ، حينئذ ، اهتماما بحالة فردية لجانب عرضي ... بل يمثل بداية منهجية نحو الاهتمام بالفلاسفة والمتصوفة العرب اهتماما اكاديميا يتوخى ـ اول ما يتوخى ـ انزالهم منازلهم حسب الموهبة والانجاز في الصف الاول من صفوف الادب الرمزي المفلسف .

الدراسة :

(الميت) ، يقول لنا « ابن طفيل » في قصيدته :

« اسراء النفس ونوم المشيح » : (وقد نام المشيح وهوما) .

واسرت الى وادي العقيق من الحمى) ..

و « الالمام » : بمعنى الزيارة قبا ، والفعل المت به يلمت عليه .. ويقال فلان يزورنا لماما اي في الاحايين ... حسب السوانح والفرص والحظوظ .. والتمام : بمعنى اللقاء البسيط ..

ان « ابن طفيل » يخبرنا انها لازوره الا غبا بعد طول غياب ، وان اللقاء بعد طول الغياب وكثرة الشوق لم يكن الا يسيرا .. وانه بهذا ليس باللقاء الذي قد يشفي غليلا لمشتاق ..

وانها يخبرنا « ابن طفيل » الم به بعد ان نام المشيح ... والمشيح : بمعنى الجاد الحذر .. وشايح الرجل : بمعنى جد في الامر .. ولا تكن المشايحة بهذا المعنى الا في الامر الخطر .. قال ابو ذؤيب الهذلي يرثي رجلا من بني عمه ويصف مواقفه في الحرب :

« وزعتهم حتى اذا ما تبددوا
سراعا ولاحت اوجه وكشوح
بدرت الى اولاهم فسبقتهم
وشايحت قبل اليوم انك شيخ»..

هذا ، ولا يكون الحذر بغير جد شيحا ، وقول الشاعر:

« يشيح على الفلاة فتمليها
بنوع القدر اذ قلق الوضين » :

والمشيح المجد ، وقول الشاعر :

« وافدامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح »

وشايح مشايحة بمعنى حذر ... ونقول انه لمشيح حازم حذر ... والشائح : يعني الغيور .. والمشيح الحذر والجاد في الامر .. وقيل انه المقبل اليك المانع لما وراء ظهره .. واشاح مثل شايح .. والاشاحة تعني : الحذر ، وقول الشاعر :

« من حيث لا تنفع الاشاحة من
امر لمن قد يحاول البدعا » ..

انها ، اذن ، قد زارت الشاعر في قصيدة « ابن طفيل » بعد ان نام المشيح : الرقيب الجاد الحذر اليقظ الغيور الحاسد المانع للزيارة وللوصل ..

هناك ، اذن ، الشاعر العاشق الدنف المحترق شوقا الى وصل بلقاء .

وهناك ، على الضفة الاخرى من نهر الشوق ، معشوقة تتدلل ممنوعة محجوبة ولا تزور الا لماما على استحياء وبكبرياء ... وبعد طول فراق وكثرة تردد .

وهناك « المشيح » الواقف بين العاشق والمشيقة : حذرا يقظا غيورا مانعا للزيارة وللتواصل بأي من اسباب الوصل .

والثالوث تقليدي في شعر وحياة وقصص حب العرب وتجاربهم في الحب .. فالعاشق يريد وصلا ، والمعشوقة يخاف المشيحين ، والمشيحون رقباء يحسدون وغيارى يمنعون الوصل ولا يرحمون ..

هذا ، وقد اتخذ الشاعر « ابن طفيل » النوم وسيلة توسل بها الى غفلة المشيح الذي هام وهوما بعد ان نام فنامت بنومه اعين الرقباء ...

« والمشيح » في قصيدة وحياة الحب عند العرب من المفردات التي لها شان في قاموس مفردات الشعر .. وانها اضافة الى كل ما نحمل من خلال المعاني المركبة تعني «الاهل» وتعني « العذال » ، وتعني « الوشاة » .

وهكذا ، فالمشيح : « اهل » :ـ اهلوها يخافون على وعلى انفسهم منها ومن العاشق اذا اندفع واندفعت معه عبر حدود المألوف المتعارف عليه طقسا وتقليدا في الناس ..

والمشيح ـ ثانيا : « عذال » :ـ ينصحون بتركها تعليلا للعاشق بتعلة بتوخون ان يكون له منها وبها الترك والسلوان .. هذا وقد يخفي العاذلون مقاصد الوشاة ..

والمشيح ـ ثالثا : « وشاة » :ـ يحسدون ويمنعون نعمة الوصل يفضحون اسرار اللقاء الى الاهل والى العذال والى الناس اجمعين ، وكلهم ـ عند وعلى العاشق ـ مشيح يرد العاشق لو يقدر عليه فيتقيه .

ولنا ،عند هذا الحد من القراءة في اشعار « ابن طفيل » ان نسال عن هذا « المشيح » في قصيدته فنسال : اهو من الاهل ؟ .. ام من العذال .. ام انه من الوشاة ؟؟ .. ام انه « مشيح » ياخذ من كل وظائف هؤلاء بطرف ؟ .. ام انه رمز ؟ ..

ان كل ما قد يكون من امر هذه الحالات لا يعدو حال كونها احتمالات يتعلق ـ اول واخر ما يتعلق امرها ـ بطبيعة العاشق وبطبيعة المعشوقة وبهوبتيهما في دروب العشق ..

والعاشق ـ دعنا ناخذ المسالة على الظاهر ـ في قصيدة « ابن‌طفيل » هذه ، شاعر يتلهف الى وصل لم ينل منه الا لمة بعد ان نام « المشيح » .. وهذا واضح ملهوم . لكن لنا ان نسال ـ عند هذا الحد من الفهم ـ هل ان هذا المشيح موظف على الشاعر العاشق ؟ ام على المعشوقة موضوع حب الشاعر ام على الطرفين ؟ .. وما هوية هذا « المشيح » ؟!

ان كل هذا وغيره امر مناط بالتوغل في القراءة التي نعرف بها انها بعد ان الت به في غفلة من المشيح اسرت بنفسها من « الحمى » الى « وادي العقيق » ..

فما « الحمى » هنا ؟ .. وما هذا « السرى » ؟ وما « وادي العقيق » ؟ ..

« العقيق » ، بفتح اوله وكسر ثانيه ، وقافين بينهما ياء مثناة من تحت : كل مسيل ماء شقه السيل في الارض فانهره ووسعه .. وفي بلاد العرب اربعة اعقة وهي اودية عادية شقتها السيول ، والاعقة الاودية ومنها عقيق عارض اليمامة : وهو واد واسع مما يلي القرقة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء .. وعقيق اليمامة لبني عقيل وفيه قرى ونخل كثير .. ويقال له عقيق ثمرة .. وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين من يخرج من اليمامة يريد اليمن .. وفيه يقول الشاعر :

« تربع ليلى بالمشيح فالحمى
وتحفر من بطن العقيق السواقيا »

ومنها عقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل .. بل قيل انهما عقيقان : الاكبر وهو مما يلي الحرة ما بين ارض عروة ابن الزبير بن عبدالله بن عمر بن عثمان الى قصر المراجل ثم اذهب بالعقيق صعدا الى منتهى البقيع .. والعقيق الاصغر ماسفل عن قصر المراجل .. وفي عقيق المدينة يقول الشاعر :

« اني مررت على العقيق واهله
يشكون من مطر الربيع نزورا
ما ضركم ان كان جعفر جاركم
ان لا يكون عقيقكم ممطورا »

وفي هذا العقيق قصور ودور ومنازل وقرى .. وقيل العقيق واد عليه اموال اهل المدينة ، وهو على ثلاثة اميال او ميلين ، وقيل ستة ، وقيل سبعة ، وهي اعقة احدهما عقيق المدينة عق عن حرتها اى قطع ، وهذا العقيق الاصغر وفيه بئر رومة ، والعقيق الاكبر بعد هذا وفيه بئر عروة ، وعقيق آخر اكبر من هذين وفيه بئر على مقربة منه ، وهو الذي اقطعه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بلال بن الحارث المزني ثم اقطعه عمر الناس .. وعلى هذا يحمل الخلاف في المسافات ..

ومن الاعقة العقيق الذي جاء فيه : انك بواد مبارك .. وهو العقيق الذي ببطن وادي ذي الحليفة وهو الاقرب منها..

ومنها العقيق الذي في بلاد بني عقيل .. وهو الذي مر ذكره وفيه منبر من منابر اليمامة .. وقد ذكره القحيف بن حمير العقيلي حيث قال :ـ

« يريد العقيق ابن المهر ورهطه
ودون العقيق الموت وردا واحمرا
وكيف تريمون العقيق ودونـــه
بنو المحصنات اللابسات السنورا »

ومنها « عقيق » ، ولا يدخلون عليه الالف واللام .. وهو قرية ، قرب سواكن من ساحل البحر في بلاد البجاه ، يجلب منها التمر هندي وغيره .

ومنها العقيق : ماء لبني جعدة وجرم تخاصموا فيه الى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقضى به لبني جرم .. ومنها عقيق البصرة : وهو مما يلي سفوان ....

ولحبيبة من هذيل بعقيق البصرة ترثي خالها :

« اسائل عن خالي مذ اليوم راكبا
الى الله اشكو ما تبوح الركائب
فلو كان قربا يا خليلي غلبتـــه
ولكنـه لم يلف للموت غالب »

ومنها عقيق آخر يدفع سيله في غورى تهامة ، واياه عني ابو وجزة السعدي بقوله :

« ياصاحبي انظروا هل تؤنسان لنا
بين العقيق واوطـاس باحداج »

وهو الذى ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال : « لو اهلو من العقيق كان احب الي » ..

وقال السكرى في قول جرير :

« اذا ماجعلت السي بيني وبينها
وحرة ليلى والعقيق اليمانيا » .

والعقيق : واد لبني كلاب نسبه الشاعر الى اليمن لان ارض هوازن في نجد مما يلي اليمن وارض غطفان في نجد مما يلي الشام واياه ايضا عني الفرزدق بقوله :

« الم تراني يوم حـــو ســوبقه
بكيت فنـادتني هنيدة عاليـــا
فقلت لها ان البكـاء لراحـــة
به يشتفي من ظن ان لا تلاقيـــا
ففي ودعينا يا هنيد فانـــني
ارى الركب قدساموا العقيق اليمانيا»

وقال اعرابي :

« الا ايها الركب المخون عرجوا
باهل العقيـق والمنازل من علـم
فقالوا نعم : تلك الطلول كعهدها
نلوح ، وما مضى سؤالك عن علم
فقلت بلى ان الفؤاد بهيجـــه
تذكر اوطان الاحبـة والخدم »

وقال اعرابي :

« اباسروتي وادي العقيق سقيتما
..... الـى ان يقـــــول
ولا تهتن ظـلاكما ان تباعـدت
وفي الدار من برجو ظلالكما بعدي »

هذا ، وقد اكثر الشعراء من ذكر العقيق وذكروه مطلقا، ويصعب تمييز كل ما قيل في العقيق فنذكر مما قيل فيـه مطلقا .. ومن ذلك قول الشاعر :

« ايا نخلتي وادي العقيق اما يلي
جنى النخل والتين انتظاري جناكما
لقد خفت ان لا تنفماني بظـائل
وان تمنماني مجتنى ما سواكما »

وزوجت اعرابية ممن يسكن عقيق المدينة وحملت الى نجـد فقالت :

« الا الريح من نحو العقيق تنسمت
تجدد لي شوق يضاعف من وجدي
اذا رحلوا بي نحو نجـد واهلـه
فحسبي من الدنيا رجوعي الى نجدي»

وبناء على هذا الذى ذكرناه من امر العقيق نرى مايلي:

١ ـ ان المشهور في اشعار الشعراء من الاعقة عقيق المدينة والعقيق اليماني .

٢ ـ ان شهرة العقيق في الاشعار بدات مرتبطة بتجارب حب وعشق مرتبطة باعقة معلومة موضعا ومكانا .

٣ ـ ان العقيق تطور عند الشعراء في الاداء والتعبير خارج حدود التجريب ... وصار بفعل صيرورة هذا التطور اسما لكل مكان ينبت العز فيه حب وفتوة وجمـال وخفض عيش وشعر وخصب ... ثم صار بعد ذلـك اسما لمواطن الحنين من الارض ... ثم تطور بعد ذلك فصار اسـما لمواطن الحنين جميعا : ارضا وحالا ... وهو اذ يشير الى الحال مجردا عن ظروف الزمان والمكان يكون في الترميز اقوى ما يكون الرمـز في الدلالة على العام عبـر حدود الخاص المقيـد بقيود وابعاد الزمان والمكان .. ولا ترى « ابن طفيل » مستعملا « العقيق » الا بهذا المعنى ومن هذا الباب .

ونحن لانعرف ان لابن طفيل دراية مقيمة بالعقيق اوزائرا له او مار به ، فهو ضمن حدود معلوماتنا لم نره .. وانه ليس له فيه تجريب .. انما هو برله لفظا شعريا محملا بتجـريب شعراء وبتقاليد اخرين لهذا التجريب .. بل انه يتداوله هنا رمزا للدلالة على المكان الذى تتوق اليه النفس حين يصعـد بها الشوق متلهفا نحو مواطن النعمة والراحة والعيش الهانيء : انها النفس الصافية المجردة متجوهرة بالرؤية الصوفيـة عبر حدود عالم الشـهادة : مشـرفة على تخوم عوالم الروح والغيب في معـارج القدس .. بل انهـا الرؤيـة الصوفيـة المتجوهرة بالسعادة : سعادة الولاية في معارج قدس الهجـر الصوفي حيث مالا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وهكـذا تصير (النفس الصافيـة المجـردة والرؤية الصوفية وطور الولاية وسعادة الابد) حسـناء لا تزور الا غبا ـ في تجربة « ابن طفيل » ... وان هذه الحسناء لا تجـيء بعد طول الشباب الا لماما اذا نام الشيخ تهويما والتهويم اخف النوم واقله .. قال الفرزدق :

« ما نظم العين نوما غير تهويم » ، يريد النوم الخفيف .. وهوم الرجل اذا هز راسه بالنعاس .. واذا كان النوم قليلا فهو التهويم .. والتهويم : اول النوم ، وهو دون النوم الشـديد .. وجلي واضـح هنا ان « ابن طفيل » يريد هنا بالتهويم قلة النوم وقصر مدته » .

وانها اسرت من وادي العقيق الى الحمى .. والسرى : سير الليل عامته .. لكنه اكثر دلالة على السير آخر الليل . قال لبيد : « فبات واسرى القوم آخر ليلهم » ..

ومهما يكن من امر فالسرى مثل المشيح ومثل العقيق من مشهور مفردات قاموس الشعر عند الشعراء .. قال لبيد : « قلت هجدنا فقد طال السرى » . وقال النابغة : « اسرت اليك ولم تكن تسرى » .. وقال غير هؤلاء في السرى الكثير .. هذا ، وان « ابن طفيل » يعيش هنا الجاهلية مفردات وصورا ويعيش التجربة الصوفية تحت السجف الجاهلي المجيد .

و « اسرت » ، يقول لك « ابن طفيل » : « الى وادى العقيق من الحمى » .. بالكسر والقصر ، اصله في اللغة الموضع فيه كلا يحمى من الناس ان يرعوه .. يقال : حميت الموضع اذا منعت منه ، واحميته اذا جعلته مكانا لا يقرب .. قال الاصمعي : الحمى حميان ، حمى قريه ، وحمى الربذة .. وهناك حمى قيد ، وحمى النير ، وحمى ذى الشرى ، وحمى النقيع .. فاما حمى قريه فهو اشهرها واسرها ذكرا، وهو حمى كليب بن وائل ... وفي ناحية منه قبر كليب معروف ... وبه كانت ترعى ابل الملوك ... وحمى الربذة ايضا اراده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله : « لنعم المنزل الحمى » ... وحمى قيد .. قال ثعلب : الحمى حمى قيد اذا كان في اشعار اسد وطي .. فاما في اشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب من المدينة .

هذا ، والحمى مشهور في قاموس مفردات لغة الشعر عند العرب وفي تجريبهم الوجداني في الحوادث واطوار الحياة والحب والجمال والحنين والشعر .. قال الشاعر :

« سقى الله حيابين صارة والحمى
حمى قيد صوب المدجنات المواطر » ..

وللعرب في الحمى اشعار كثيرة .. قال اعرابي :

« ومن كان لم يغرض فاني ونافتي
بنجد الى ارض الحمى غرضان
اليفا هوى مشلان في سر بيننا
ولكننا في الجهر مختلفان
نحن فتيدى ما بها من صبابة
واخفى الذى لولاالاسى لقضاني».

وقال اعرابي اخر :

« الا تسالان الله ان يسقي الحمى
بلى فسقى الله الحمى والمطاليا
فاني لا ستسقي لشتين بالحمى
ولو تملكان البحر ما سقانيا
واسال منلاقيت ،هل مطر الحمى
وهل يسالن اهل الحمى كيف حاليا ».

وقال اعرابي آخر :

« خليلي ما في العيش عيب لواننا
وجدنا لايام الحمى من يعيدها
ليالي الواب الصباجد دلنا
فقد انهجت هذى عليها جديدها »

والحمى ـ لمادر حروف النصوص الى معانيها ـ يعني المصطاف ، ويعني المشتى ، ويعني الامن واليسر والامان ، ويعني الخصب والربيع والشعر والجمال والحياة الابهة !! والحياة الكبرياء ... وانه بكل هذا وغيره مثل العقيق بدا اسما لمكان ... ثم صار اسما لكل موصوف بصفات هذا المكان ... ثم صار اسما لصفات الموصوف بصرف النظر عن وجوده ضمن حدود واقعية الجغرافية والتاريخ ... ليصير، بتطور التجريد ، رمزا دالا على الصفات وفق قوانين تدرج الكلمة من الدلالة الحرفية الى الاشارة والرمز ..

فالحمى عند « ابن طفيل » مثل « العقيق » ومثل التي يعود اليها الضمير في قوله « الت » ومثل « المشيح » رموز واشارات يشارك بها « ابن طفيل » الصوفية في الشعر الرمزي الفلسفي ... هذا وان « الحي » و « الحمى » و « العقيق » من رموز الصوفية واشاراتهم المشهورة .. وانها متطورة في الاصل ـ كما ذكرنا ـ من اداء الشعر الواقعي المباشر الصلة باحداث التجريب الحياتي ضمن حدود الزمان والمكان .

و « المحصب » مثل « العقيق » ومثل « الحمى » في الاصل اسم لموضع بين « مكة » و « منى » وهو الى منى اقرب .. وهو بطحاء مكة .. وهو خيف بني كنانة وحده من الحجون ذاهبا الى منى .. والقول :

« كان لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ولم يسمر بمكة سامر » .

وقال الاصمعي : حده ما بين شعب عمرو الى شعب بني كنانة .. والتسمية مشتقة من الحصباء التي في ارضه ومنسوبة اليها .. والمحصب ايضا موضع رمي الجمار بمنى ... وهذا من رمي الحصباء .. قال عمر بن ربيعة :

« نظرت اليها بالمحصب من منى
ولي نظرة لولا التحرج عادم
فقلت اشمس ام مصابيح بيعة
بدت لك تحت السجف ام انت حالم
بعيدة مهوى القرط اما لنوفل
ابوها واما عبد شمس وهاشم
ومد عليها السجف يوم لقيتها
على عجل تباعها والخوادم
فلم استطعها غير ان قد بدا لنا
عشية راحت كلها والمعاصم
اذا ما دعت اترابها فاكتنفنها
تمايلن او مالت بهن الاكم
طلبن الصبا حتى اذا ما اصبنه
تزعن وهن المسلمات الغوالم » .

وانها يقول لك « ابن طفيل » ـ وليكن قول «ابن دبيعة» جوا لقوله ـ الت بعد ان نام المشيح وهوما .. واسرت بعد ذلك من « الحمى » الى « وادى العقيق » : « وجبرت » ، بعد هذا السرى ، « على ترب المحصب ذيلها

فما زال ذاك الترب نهبا مقسما » .

وترب المحصب ـ دعنا نبدا بتحليل القصيدة ـ يعني الجسد : عالم الشهادة : عالم الجزئي النسبي المحسوس : عالم الاشياء :عالم المادة :عالم التغير والتبدل والتفاعل والكون والانحلال : عالم الشهوة والحسد والغضب والخطا والخطيئة والحق المشاب بالهوى والاهواء : عالم النفس محبوسة في ظلمات البدن :عالم النفس عبدة مطيعة لرغبات هذاالجسد..

وظل ذاك الترب ، يقول لك « ابن طفيل » مفعما بالمسك مذ جرت عليه الذيل :

« تناوله ايدى التجار لطيمة
ويحمله الدارى ايان بمما » .

و « النهب : يعني الغنيمة » .. و « التجار » : بالكسر والتخفيف جمع تاجر .. وقد غلب على الخمار .. قال الاعشى :

« ولقد شهدت التاجر الـــــــ
أمان موردة شرابــــه » ..

وقال ابن يعفر :

« ولقد اروح على التجار مرجلا
قبلا بمالي ليتما اجيادى » ..

واصل التاجر عندهم الخمّار .. والجمع كذلك تجـــر مثل صاحب وصحب .. ومن ذلك قول الشاعر :

« اذا ذقت فاها قلت طعم مدامة
معتقة مما يجيء به التجـــر »

وقد جمع الأخطل ـ مثلما جمع ابن طفيل « المســـك والتجار في بيت واحد بقوله :

« كان قارة مسك غار تاجرهـــا
حتى اشتراها باغلى بيعة التجر»

و « اللطيمة » التي : « تناولها ايدى التجار لطيمة » في بيت « ابن طفيل » تعني المسك .. لكنه قد يكون في معنى غير هذا المعنى مما يفي بقصد الشاعر ... و « اللطم » يعني في الاصل ضربك الخد وصفحة الجسد ببسط اليد : بالكف مفتوحة .. وهو الضرب على الوجه بباطن الراحة .. وجاء في المثل : « لو ذات سوار لطمتني » فانه امراة لطمتها من ليست بكفء لها .. وقال الليث : اللطيم ، بلا فعل ، من الخيل الذى ياخذ خديه بياض .. وقال ابو عبيـــدة : اذا رجعت غرة الفرس من احد شقي وجهه الى احد الخدين فهو لطيم ، وقيل اللطيم من الخيل الذي سالت غرته في احد شقي وجهه .. واللطيم من الخيل الابيض موضع اللطمة من الخد .. وقيل اللطيم الذى غرته في احد شقي وجهه الى احد الخدين في موضع اللطمة .. واللطيم من خيل الحلبة : هو التاسع من سوابق الخيل ،وذلك انه يلطم وجهه فلا يدخل السرادق . واللطيم : الصغير من الابل يفصل عند طلوع سهيل ، وذلك ان صاحبه ياخذ بأذنه ثم يلطمه عند طلوع سهيل ويستقبله به ويحلف ان لا يذوق قطرة لبن بعد يومه ذلك ... وقال الجوهري : اللطيم فصيل اذا طلع سهيل اخذه الراعي وقال له : أرى سهيلا والله لا تذوق عندي قطرة ! ثم لطمه ونحاه .. وقال ابن الاعرابي : اللطيم الفصيل اذا قوي على الركوب لطم خده عند عين الشمس ثم يقال له : اشرب ! فيصير ذلك الفصيل مؤدبا يسمى لطيما .. واللطيم الذى يموت ابواه ..

ولنرجع الى « ابن طفيل » ـ وسط هذا الجو الادبي اللغوي التاريخي ـ ولنسال وسط هذاالجو اللغوي الثقافي : هل ان ترب المحصب بعد ان جرت عليه الذيل وغادرته ـ صار بهذه المغادرة مضيعا مثل الذى يموت ابواه ؟! ، مكســـورا منكسر الخاطر ضائعا بلا دليل ومضيعا بلا حماية فلا احـد يرعاه ؟! .. ام ان ترب المحصب صار ، بعد ان جرت عليه الذيل وغادرته ، مهجورا الى وصل غيره قد صار مثل فصيل جاءه دور الفطـم بفته بعد طمانينـة موفور الرعاية واللبن وحنان الرضاع ؟ .. ام ان ترب المحصب ظل، بعد انغادرته، خائبا يعاني اوجاع والام وحسرات الخيبة مثل معاناة التاسع الخائب في حلبة السباق ، وان ترب المحصب قد ظل لطيما لا يرقى بتاهيـل الى صـفوف الداخلين سـرادق الفائزيـن بالمشاهدة في اطوار الولاية مثلما يظل لطيم الخيل بعد الخيبة في السباق خارج سرادق سوابق الخيلولا يدخل مدخل صدق مع السـابقين ؟! ام ان الأمر لا هذا ولا ذاك ولاشيئا من الامور المارة الذكر ، وان « ابن طفيل » انما اراد معنى آخر وهو انها بعد ان الت به واصلة غادرته الى غيره تاركة عليه علامه يعرف بها ميسما مثلما يعرف اللطيم من الخيل بعلامته ؟!

ان كل هذه الاحوال احتمالات جائزة ومؤدية الى المعنى بالرمز في انسـجام تام مع « تناوله ايدي التجار لطيمـة » : دلالة على الضياع والهجر وقلة القيمة في التقدير ... ام ان « ابن طفيل » قصد انها بعد ان جرت عليه الذيل وغادرتـه الى نجد تركته بهذه المغادرة ذليلا مثل اللطيم المضروب على الخد تاديبا وناديبا ؟! .. ام ان « ابن طفيل » قصد بالمعنى انها بعد انجرت عليه الذيل وغادرته تركته مؤدبا مثل الفصيل الذى يلطم خده عند عين الشـمس حين يغـوى على الركوب فيفصل ويصير بعد اللطمة والفصل مؤدبا ... وان تـرب المحصب الذى افترضنا انه الجسد الفاني قد تادب وتهذب بعض الادب وبعض التهذيب بعد ان مرت عليه الروح وغادرته تاركة عليه لطمة تهذيب مثل اللطمة التي يتركها الرعاة علىخد الفصيل اللطيم عند عين الشمس : التي هي ضمن حـدود اجواء التصوف عين الحقيقة وعين النور وعينالتنوير في عالم المشاهدة عند نخوم الكشـف الصوفي ومكاشـفات الولاية في معارج القدس .

ان كل هذا محتمل يحتمل اداء المعنى وذلك لان كلمـة « لطيم » من الكلمات المشحونة بحظ موفور منالمعاني الهاجعة وراء الدلالة التاريخية الواقعية للكلمة .. وان هذه المعاني تساعد من الكلمة للدلالة علىالمعاني حسب دواعي ومستلزمات التجريب الادبي .. لكن هذه الاحتمالات لاتفيد المعنى الذى قصده « ابن طفيل » ما لم نفترض انه قـد اثبت « اللطيم » وانه قد اعتبر « اللطيمة » مؤنث « اللطيم » في المعاني المارة الذكر .. وهنا مالا يجوز افتراضـه ما لم نفترض ان « ابن طفيل » اما ان يكون قد اثبت « اللطيم » متجاوزا الصحيح المالوف ، او انه قد اثبته غير عارف ان الانثى لطيم ايضا في المعاني المارة الذكر .. هذا من جهة .. اما من الجهة الاخرى فان « اللطيم » و « اللطيمة » : يعني المـسك .. وقال ابن دريد : هي كل ضرب من الطيب يحمل على الصدغ من اللطم الذى هو الخد .. واللطيمة : وعاء المسك ، وقيل هي العير تحمله .. وقيل : سوقه ، وقيل : كل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من الطيب والمتاع غير الميرة لطيمة .. وروى ثعلب عن ابن الاعرابي انه انشده لعاهان بن كعب بن عمرو بن سعد:

« اذا اصطكت بضيـق حجرتاهـا
ملاقى المسجدية واللطيـــم »

وقال ابن برى : اللطيم منسوب الى سوق يكون اكثر بزها اللطيم وهو جمع اللطيمـة وهي العير تحمل المسـك .. وقال ابن السكيت : اللطيمة عير فيها طيب .. قال ذو الرمة:

« ... لطائم المسك يحوبها وتنتهب »

سابقا بهذا « ابن طفيل » في الجمع بين « النهب » و «اللطائم» في موضوع واحد ..

وقال أبو عمرو : اللطيمة قطعة مسك .. ويقال : قارة مسك . قال الشاعر في اللطيمة المسك :

« فقلت اعطارا ندى من رحالنا
وما ان بمومأة تباع اللطائم » .

وكل من هذه الدلالات تفيد المعنى الذى اراده « ابن طفيل » ... فارض المحصب صارت لطائم وتناقلها ايدي التجار لطيمة مسكا من اثر طيب المشوفة التي مرت بها لمة وغادرت مسرعة .. أو ـ قل ان شئت ـ انها بعد أن غادرت ترب المحصب تركت عليه من اثرها المسك .. وان ترب المحصب صار بهذا حاملا للطيب مثلما تحمله قارة المسك أو العير الذى تحمله .

لكن « ابن طفيل » قد ضيق دائرة ما صدق القول وقلل احتمالات حمل المعنى .. وضيق بهذا دائرة الدلالة الرمزية .. وان اللطيمة لا تعني هنا غير المسك الذى يحمله الدارى اينما يذهب ويجيء مع التجار :

« وجرت على ترب المحصب ذيلها
فاصبح ذاك الترب نهبا مقسما
تناوله ايدى التجار لطيمة
ويحمله الدارى ايان يمما » ..

والدارى : نسبة الى دارين : فرضة بالبحرين يجلب اليها المسك من الهند والنسبة اليها دارى .. قال الفرزدق :

« كان ريكة من ماء مزن
ودارى الذكي من المدام »

وقال الأعشى :

«وكاس كعين الديك باكرت خدرها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب
سلاف كان الزعفران وعندما
يصفق في ناجودها ثم يقطب
لها ارج في البيت غال كأنه
الم به من بحر دارين اركب »

والدارى هنا ، اذن ، تاجر المسك .. وانها بعد ان مرت على « ترب المحصب » وغادرته تركت عليه من اثر الرود بجر الذيل ما تناوله التجار بالتناقل لطيمة مسكا يحمله الداري اينما اتجه في ذهاب ومجيء التجار ..

والتجار ـ دعنا نجتهد في التحليل ـ قد يعني النفس الشهوانية ، وقد يعني الشهوانية والنامية والمغذية الغاذية .. وقد يعني كل قوى النفس هذه مضافة الى القوة الغاضبة .. وقد يعني كل قوى النفس والعقل والحس داخليا وخارجيا وكل ما للانسان من قوى وملكات غير القوة الناطقة المجردة المتجوهرة بالرؤية الصوفية والذات العليا .. هذه القوة الحالة في « ترب المحصب الذي اجتهدنا في التحليل ان يكون اسما للجسد اي للبدن الترابي الذى تركت عليه النفس المتجوهرة بالسعادة الابدية ولذائذ المشاهدة في مقامات معارج القدس واطوار الولاية مسكا ..

« ولما رأت» ، يقول لك ابن طفيل :

« ان لا ظلام بجنهـا
وان سرها فيه لن يكتما
نضت عذبات الريط عن حروجها
فابدت شعاعا يدهش المتوسما »

والكلام واضح .. انها ، يقول لك « ابن طفيل » ، بعد ان ايقنت ان السرى في النهار سفر ملفوح فاضح لاجئة له من ستر نضت اطراف البراقع عن وجهها فاسفرت وابدت بالسفور وجها يدهش الناظر اليه والمتامل فيه ويحير المتطلع اليه .. وكان منها بهذا السفور « التجلي » .. لكن هذا التجلي لم يزد الامر الا غموضا .. ولم يزدها السفور الا حجابا .. انها اصبحت محجوبة بالانوار بعد ان كانت في السرى محجوبة بظلمة الليل ..

هذا ، وقد حام « ابن سينا » حول هذا السرى وحول البراقع والحجاب والسفور فقال في بداية العينية المشهورة:

« هبطت اليك من المحل الارفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع » .

فابن طفيل يفسر لك هنا سر الحجاب بقوله :

« فكان تجليها حجاب جمالها » .. اي ان التجلي كان ساطعا باهرا .. وان شدة الوضوح في الابلاج النوراني في الحضرة الربانية تؤلف حجابا .. والحديث عن المحجوبين بالانوار طويل اطال حوله الصوفية الوقوف .. وكان من الذين وقفوا عند هذه المسالة باهتمام « ابن طفيل » و « الغزالي » و « ابن سينا » .. هذا اضافة الى ما اقامه السهروردى حول هذه المسالة في فلسفته الاشراقية ..

وكان « اللقاء » يقول لك « ابن طفيل » في « اسراء النفس ونوم المشيخ » :

« ولما التقينا بعد طول تهاجر
وقد كاد حبل الود ان يتصرما »

« اللقاء » الذي وصفه «ابن سينا» في «العينية» بقوله:

« وصلت على كره اليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات توجع
انفت وما انست فلما واصلت
الفت مجاورة الخراب البلقع »

و « الخراب البلقع » في عينية « ابن سينا » يعني « الجسد » الذى اشار اليه « ابن طفيل » بالرمز « ترب المحصب » ..

« واظنها » ، يقول لك « ابن سينا » :

نسيت عهودا بالحمى
ومنازلا بفراقها لم تقنع

والا فكيف تالف مجاورة « الخراب البلقع » لو لم تكن ناسية لعهود في الحمى : الحمى الذى اسرت منه الى وادي العقيق في قصيدة « ابن طفيل » ..

لكنها يقول لك « ابن سينا » :

« تبكي اذا ذكرت جوارا بالحمى
بمدامع تهمي ولما تقطع
وتظل ساجمة على الدمن التي
درست بتكرار الرياح الاربع
اذ عالها الشرك الكثيف وصدها
فلص عن الاوج الفسيح الاربع »

و « الشرك الكثيف » هنا يعني قوى وملكات النفس غير الناطقة ورغبات الجسد .. ويوازي في المساواة الرمزية كلمة « التجار » في قصيدة « ابن طفيل » ..

وحان موعد الرحيل : موعد الانطلاق من الشرك مصيدة ومن القفص سجنا .. وصور « ابن سينا » هذا الرحيل وهذا الانطلاق على النحو التالي :-

« حتى اذا قرب المسير من الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف
عنها حليف الترب غير مشيع
سجعت وقد كشف الغطاء فابصرت
ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق
سام الى قمر الحضيض الاوضع » ..

ان « ابن سينا » يجيد هنا ، احسن ما تكون الاجادة ، تصوير موكب افراح النفس المتجوهرة بالالوهية : انه تصوير لافراحها بالانطلاق من شرك الشهوات الحسية ومن قفص السجن الذي هو الجسد ... ولماذا - في حقيقة الامر - لا تسجع طربا وقد طاب المقام ولذ الوصول ؟ .. لماذا لا تسجع الانفس وتغرد ؟ .. لماذا لا تبتهج وقد بلغت ذروة الشاهق في معارج القدس ؟ .. لماذا وقد كشف عنها الغطاء ؟ .. لماذا لا تفرح وقد ابصرت ما ليس تبصره العيون التي تهجع وتنام وتبصر حين الرؤية بالباصرة التي في عيون الراس ..

ويذكر ، بعد ذلك ، « ابن سينا » اسباب هبوط النفس المتجوهرة بالالوهية الى عالم الشرك الكثيف بقوله :

« فهبوطها قد كان ضربة لازب
لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية
في العالمين فخرقها لم يرفع »

وهكذا يكون « ابن سينا » قد فسر لنا الحكمة من الهبوط الى العالم الاسفل حيث قطعت عليها حدود الزمان والمكان الطريق الى العالم الفسيح الاربع .

هذا ، وان حدود الزمان قد فرضت عليها النهاية من حيث البداية في التجريب قبل التجريب قدرا مقضيا :

« وهي التي قطع الزمان طريقها
حتى لقد غربت بعين المطلع
وكانها برق تالق بالحمى
ثم انطوى فكانه لم يلمع »

وانك لتجد هنا « البرق » السيناني عند « ابن طفيل » في وميض البارق على النحو التالي في قوله :

« ولما انتهينا بعد طول تهاجر
وقد كان حبل الود ان يتصرما
جلت عن لثاياها واومض بارق
فلم ادر من شق الدجنة منهما »

وتنتهي قصيدة « ابن طفيل » هذه على نحو ما يلي من الوضوح :

« وساعدني جفن الغمام على البكا
فلم ادر من شق الدجنة منهما
فقالت وقد رق الحديث وابصرت
قرائن احوال الذي اتكتما
نشدتك لايذهب بك الشوق مذهبا
يهون صعبا او يرخص غاليا
فامسكت لا مستغنيا عن نوالها
ولكن رايت الصبر اوفى واكرما »

ونلاحظ عند هذا الحد من التحليل ان النصف الاول من قصيدة « ابن طفيل » هذه لا يحمل من التجريب غير التجريب في حوادث التصوف ..

اما النصف الثاني منها فلا ينطوي من التجريب الا على التجريب الشخصي في معتاد الحوادث في الحياة المتداولة واقعيا .. كما نلاحظ - عند هذا الحد من التحليل كذلك - ان النصف الاول من هذه القصيدة قد جاء زاخرا بكلمات مشحونة بتجريب شعراء اكسبوها ثراء من واقعية التجريب فاكتسبت الكلمات بهذا الشحن كهربة شعرية رمزية عالية الضغط والتاثير : قوية في الاثارة وراسخة في التعبير الرمزي والاداء الشعري المشهور في التجريد .. ومنها « المشيح » ، و « النهويم » ، و « نجد » ، و « نعمان » ، و « المحصب » ، و « التجار » ، و « الدارى » ، و « اللطيمة » ، و « السرى » .. لكنك لاتجد شيئا من هذا الزخم الشعري الرمزي المكهرب في مفردات النصف الثاني من القصيدة .. وهذا ما يستدرجنا الى الاعتقاد بان « ابن طفيل » قد كتب النصف الاول من قصيدته هذه في « جو » ، وانه كتب النصف الثاني منها في « جو » اخر .. وانه قد غام في النصف الاول من القصيدة في اجواء جاهلية عارمة الحب واسطر عشقا صوفيا .. اما في النصف الثاني منها فقد غام في اجواء اندلسية - عباسية واسطر حبا شعريا لا تبرئه من صنعه وتقليد .. وانه حاول - ثالث ما نلاحظ - التاليف بين النصفين بجمع اولهما الى ثانيهما في قصيدة واحدة ..

ونقل - من جهة المقارنة العامة - عينية « ابن سينا » اكثر حرفية في الاداء من قصيدة « ابن طفيل » .. هذا من جهة .. اما من الجهة الاخرى فان قصيدة « ابن سينا » اقرب ما تكون الى النظم التعليمي منها الى الادب الرمزي المفلسف رغم انها قد احتوت قسطا من الرمز القائم على التشبيه غير قليل ضمن حدود قوالب البلاغة .

ومهما يكن من امر فان « اسراء النفس ونوم المشيح » لابن طفيل مثل « العينية » لابن سينا تقوم في المنطق وفي التوجه (الفلسفي الصوفي - الادبي) على ما يلي من اسس :

١ - مادية الاجساد : ان الاجساد كائنة ومتولدة ومخلوقة من مادة .

٢ ـ روحانية الانفس : ان الانفس من روح لا من مادة ولا في مادة الا على سبيل الاقامة المؤقتة والتدبير .

٣ ـ ان الاجساد متناهية وحادثة كانت بعد ان لم تكن وفانية تنتهي بالانحلال بعد ان تغادرها الانفس بانتهاء الاجل المحتوم لمدة هذه الاقامة .

٤ ـ ان الانفس ارواح لا متناهية وخالدة : ازلية ابدية ..

٥ ـ ان الاجساد ارضية المنشا ..

٦ ـ ان الانفس الهية المصدر ..

٧ ـ ان الجسد سجن تقيم فيه الانفس مسجونة ..

٨ ـ ان الانفس تظل دائمة التطلع بالحنين الى مصدرها في العالم الكلي المطلق المجرد المتحرر من قيود الزمان والمكان واسباب الشقاء والفناء ... متطلعة بكل الشوق واللهفة الى آفاق ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من اسباب السعادة والحبور المذهل في الحضرة الربانية .

٩ ـ ان الجسد يحد من قدرة الانفس على التحرر من قيوده ويصدها عنه بالشهوات واللذائذ الحسية وهموم ومطامع مضطرب الحياة الحسية في العالم الدنيوي ..

١٠ ـ ان السبيل لتحرر الانفس من قيود واصفاد الجسد وظلمات غياهب السجن فيه لا تكون الا :

(ا) بالاعراض عن الدنيا وقهر رغبات الجسد بالتقشف وبالزهد وبالرياضيات الروحانية ..

(ب) بالمعرفة اللدنية وبالتدرج في المعراج الصوفي نحو السعادة الابدية في عالم الخلود .

وانك لتجد شرح كل هذا ماثلا في قصيدة « فراق الروح للبدن » حيث يقول لك « ابن طفيل » :

« باباكيا فرقة الاحباب عن شحط
هلا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد في طين الى اجل
فانحاز علوا وخلى الطين للكفن».

وجلي ، جد واضح ، ان النفس عند « ابن طفيل » نور وان الجسد عنده طين ، وان هذا النور يتردد حينا في الطين ثم ينحاز بعد الحين نحو عالم الخلود تاركا الطين للكفن : انها ، اذن ، مسالة عودة كل الى اصله : النفس نور الهي ينحاز نحو خلود الالوهية والوهية الخلود .. والجسد طين يظل للكفن في الطين .. هذا ، وقد عبر ابن سينا في « العينية » عن هذا المعنى بقوله :

« حتى اذا قرب المسير من الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدت مفارقة لكل مخلف
عنها حليف الترب غير مشيع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق
سام الى قعر الحضيض الاوسع »

وهكذا نجد ان « النور » الذي هو « النفس » قد انحاز علوا وخلى « الطين » الذي هو « الجسد » للكفن عند « ابن طفيل » .. اما عند « ابن سينا » فان « النفس » التي هي « الورقاء » قد صعدت مرتقية الى الاوج الفسيح الاربح والفضاء الاوسع فوق ذروة شاهق منحلية الجسد في القعر الحضيض الاوضع : العالم السفلي : العالم المحسوس ..

ونلاحظ حتى هذا الحد من قراءة اشعار « ابن طفيل » مقارنة باشعار « ابن سينا » انها يحومان حول ما يلي :ـ

(ا) : الفرق بين جوهر النفس وجوهر الجسد ..

(ب) : العلاقة بين النفس والجسد ..

(ج) : محاولة فك ارتباط النفس بالجسد ..

(د) : نظرية المعرفة والنفس العارفة ..

(هـ) : النفس العارفة والتجوهر بالسعادة ..

(و) : التشوق والهيام عشقابالنفس المتجوهرة بالسعادة ..

(ز) : افراح النفس المتجوهرة بالسعادة ، وافراح الشاعر الصوفي المتاله ، واتحاد الفرحتان باللقاء : لقاء المتصوف بالنفس المتجوهرة بالسعادة ولقاء هذا المتصوف بالذات المطلقة حيث الخلود في سعادة الابد عبر حدود الزمان والمكان واحوال التغير والتبدل في العالم المحسوس ... فابن طفيل ، حينئذ ، متطلع في هذه الاشعار الى السعادة في حبور السكينة المطلقة حيث لا نزوع الى ما هو الذ واشهى ولا تطلع الى ما هو اجمل واكمل ... وحيث لا حاجة للمجرب الصوفي في امر من الامور التي قد تكون غاية تتحرك نحوها النفس بنزوع يكون سببا لحركة يكون منتهاها انزعاج بشيء الى هدوء وسكينة المجرب في الحادثة الصوفية الكبرى .

لكن الناس ، يقول لك « ابن طفيل » يتباينون في هذا الشان .. وان تباينهم في هذا الشان عجيب .. وان حظوظ الناس من المراتب محكومة بالجبلة وبالطبع وبالفطرة .. انه يقول لك في قصيدته « تباين الناس وقسمة الرتب » :

« ما كل من شم نال رائحة
للناس في ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم
بين المعاني اولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا
وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلي لنا فرهم
منه ولا ينقضي لهم ارب
لا يتعدى امرؤ جبلته
قد قسمت في الطبيعة الرتب» ..

هذا ، ومن شعر « ابن طفيل » شعر تبدو عليه الصنعة وتتكلف فارق في التقليد .. ومنه « تذكر البكاء » اذ يقول :

« اتذكر اذ مسحت بفيك دمعي
وقد حل البكا فيها عقوده
ذكرت بان ريقك ماء ورد
فقابلت الحرارة بالبرودة » .

وهذا ـ حتما ـ لا شك عندنا في الرأي ـ من شعر الحداثة ... ونقدر ان ابن طفيل قد نظمه في اول بدايات

التقليد قولا قبل عهد التجريب فعلا بالفعل .. والا فكيف يهبط المجرب الحصيف الى هذا المستوى من التعبير ؟ !! .

ومثل هذا ما قاله « ابن طفيل » في « ضمياء العليلة » اذ يقول :

«يقولون لي ضمياء اضحت عليلة
فقلت فما لي قد بقيت اذن حيا
اتصبح شمس الأرض كاسفة السنى
ولا يعترى جسمي لعلتها فيـــا
انا ما طوى عني السقام وصالها
طوى الموت روحي في ملاءه طيا ..

هذا ، و « ابن طفيل » ـ لا شك ـ شـاعر في الصف الاول من صفوف الفلاسفة والاطباء العرب الشعراء .

مادة الدراسة :

١ ـ اشعار « ابن طفيل » : انظر « القسم الاول » ـ (بحث نقدي) ، و « القسم الثاني » ـ (تحقيق) من موضوعنا هذا : « مع ابن طفيل الشاعر » ..

٢ ـ عينية « ابن سينا » : انظر « ابن سينا » في :

ـ « محاضرة الابرار » لابن عربي ..
ـ « عيون الانباء » لابن ابي اصيبعة ..
ـ « وفيات الاعيان » لابن خلكان ..
ـ « مرآة الجنان » لليافعي ..
ـ « البداية والنهاية » لابن كثير ..
ـ « حياة الحيوان » للدميري ..
ـ « شذرات الذهب » لابن العماد ..
ـ « مقامات النجاة » للجزائري ..
ـ « نزهة الجليس » لعباس المكي ..
ـ « ديوان ابن سينا » لحسين علي محفوظ ..

مراجع الضبط اللغوي : ـ

« لسان العرب » لابن منظور ..

مراجع ضبط المواضع : ـ

« معجم البلدان » لياقوت الحموي ..

WWW.ATTAWEEL.COM